



﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ أي أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أيها المشركون في أمركم، تعبدون مع الله إلهاً غيره، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق، كقوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: 87].

﴿إِلَيْنَ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [٤].  
 يخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة، لا يترك منهم أحداً حتى يعيده كما بدأه، ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل والجزاء الأوفى ﴿يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العذاب من سموم وحميم، وظل من يحموم ﴿هَذَا فَلْيُدْرِكُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ﴾ [٥] ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَجَرِهِ أَزْوَاجًا﴾ [٥٨] ﴿ص: 57-58﴾  
 ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [١٢] ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [٤٤] ﴿الرحمن: 43، 44﴾.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [٥].

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياءً، وجعل شعاع القمر نوراً، هذا فن، وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لثلاثيها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدّر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيراً، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوتق، ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر، كقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْوَةِ الْقَدِيمِ﴾ [٦] ﴿لَا الشَّمْسُ بِنُغْيَىٰ لَهَا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [١٦] ﴿بقر: 39، 40﴾ وقوله تعالى ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ يُحْسِبَانِ﴾ [٥] ﴿الرحمن: 5﴾ وقوله: في هذه الآية الكريمة ﴿وَقَدَرَهُ﴾ أي القمر ﴿مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي لم يخلقه عبثاً، بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [٧] ﴿ص: 27﴾ وقوله ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي نبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿إِنَّ فِي أُخْتَالِفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْتُنُونَ﴾ [٦].

﴿إِنَّ فِي أُخْتَالِفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي في تعاقبهما، إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئاً، كقوله تعالى: ﴿يُنْفِئُ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: 54] وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي من الآيات الدالة على عظمته تعالى، كقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ يَمُوتُ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٥﴾ [يوسف: 105] وقال ههنا ﴿لَا يَكْتُمُ لِقَوْمِهِ يَقْتُونَ﴾ أي عقاب الله وسخطه وعذابه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ ﴿٧﴾ .

﴿أُولَئِكَ مَا لَهُمْ مَأْوَةٌ النَّارُ يَمَآ كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٨﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة، ولا يرجون في لقائه شيئاً، ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنت إليها نفوسهم. قال الحسن: والله ما زينها ولا رفعوها حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يفكرون فيها، والشرعية فلا يأترون بها، بأن مأواهم يوم معادهم النار جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والأجرام مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ﴿٩﴾ .

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، وامتثلوا ما أمروا به، فعملوا الصالحات بأنه سيهديهم بإيمانهم. قال ابن جريج: يمثل له عمله في صورة حسنة طيبة، إذ قام من قبره يعارض صاحبه، ويبشره بكل خير، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عمك، فيجعل له من بين يديه حتى يدخله الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة فيلزم صاحبه، ويلاذه حتى يقذفه في النار.

﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۗ وَأَخْرُ دَعْوَتُهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٠﴾ .

﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ﴾ أي هذا حال أهل الجنة، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الاحزاب: 44] وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا أَصْوَابٌ﴾ [الأنعام: 25، 26] وقوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ﴾ [يس: 58] وقوله: ﴿أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا فيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبداً، المعبود على طول المدى، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء نزوله حيث قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: 1] وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1] ولهذا جاء في الحديث: «إن أهل الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس». وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تزايد نعم الله عليهم فتكرر وتعاد وتزداد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ .

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالشر في حال ضرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيب لهم، والحالة هذه لطفاً ورحمة كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم، أو لأموالهم، أو لأولادهم بالخير والبركة والنماء، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ...﴾ أي لو استجاب لهم كلما دعوه به في ذلك لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك، فقد روى البزار عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم» ورواه أبو داود. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَمُودًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء: 11] وذلك كقول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه: اللهم لا تبارك فيه والعنه، فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ .

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [إبراهيم: 51] أي كثير، وهما في معنى واحد، وذلك أنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها، ورفعها عنه في حال اضطجاعه، وقعوده وقيامه، وفي جميع أحواله، فإذا فرج شدته، وكشف كربته أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ مَسَّهُ﴾ ثم ذم تعالى من هذه صفة وطريقته فقال: ﴿كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فاما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد فإنه مستثنى من ذلك كقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: 11] وكقول الرسول ﷺ: «عجبا للمؤمن لا يقضي الله قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له، وإن أصابته سراء فشكر كان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاؤوهم من البينات والحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم، وأرسل إليهم رسولا، لينظر طاعتهم له،

واتباعهم رسوله. وفي صحيح مسلم «إن الدنيا حلو خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون؟ فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن فتنة بني إسرائيل كانت من النساء».

﴿وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيَّنَّتْ قَالِ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بِفِتْرَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾.

يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين المعرضين عنه أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله، وحججه الواضحة قالوا له: ﴿أَنْتَ بِفِتْرَانٍ غَيْرِ هَذَا﴾ أي رد هذا وجننا بغيره من نمط آخر، أو بدله إلى وضع آخر ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي﴾ أي ليس هذا إلي، إنما أنا عبد مأمور، ورسول مبلغ عن الله ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾.

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

ثم قال تعالى محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ أي هذا إنما جنتكم به عن إذن الله لي في ذلك وإرادته ومشيته، والدليل على أنني لست أتقوله من عندي، ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي، وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عز وجل، لا تنتقدون علي شيئاً تغمصوني به، ولهذا قال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل، ولهذا سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه فيما سأله من صفة النبي ﷺ: هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا. وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة، وزعيم المشركين، ومع هذا اعترف بالحق. والفضل ما شهدت به الأعداء. فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على الله.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

يقول تعالى: لا أحد أظلم ولا أعتى، ولا أشد إجراماً ﴿مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وتقول على الله، وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك، فليس أحداً أكبر جرماً، ولا أعظم ظلماً من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأنبياء فكيف يشتهه حال هذا بالأنبياء؟ فإن من قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى وبين نصف الليل

في حنّس الظلماء، فمن شيم كل منهما وأفعاله وكلامه يستدل من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب، وسجاح، والأسود العنسي. قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس فكنت فيمن انجفل، فلما رأته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، قال: فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناس، أفسوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام».

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَبْزُرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعْنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْتَوُونَ اللَّهَ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٧﴾﴾.

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئاً، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها، ولا يكون هذا أبداً، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَنْتَوُونَ اللَّهَ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ ثم نزه نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم فقال: ﴿سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد، وهو الإسلام. وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ...﴾ أي لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه، فأسعد المؤمنين، وأعنت الكافرين.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِّن رَّبِّي فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون: لولا أنزل على محمد آية من ربه، يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة أو أن يحول لهم الصفا ذهباً، أو يزيح عنهم جبال مكة، ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً، أو نحو ذلك مما الله عليه قادر، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله. ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي الأمر كله لله، وهو يعلم العواقب في الأمور. ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ أي إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتهم فانتظروا حكم الله في فيكم. هذا مع أنهم قد شاهدوا من آياته ﷺ أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إيداره فانشق اثنتين: فرقة من وراء الجبل، وفرقة من دونه. وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا وما لم يسألوا، ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشاداً أو تثبناً لأجابه.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتَهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ .

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجذب، والمطر بعد القحط، ونحو ذلك ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا﴾ قال مجاهد: استهزاء وتكذيب. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سحاء كانت من الليل، أي مطر، ثم قال: «هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي، مؤمن بالكواكب» وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي أشد استدراجاً وإمهالاً حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه، والكتابتون الكرام يكتبون عليه جميع أفعاله، ويحسونها عليه، ثم يعرضونها على عالم الغيب والشهادة: فيجازيه على الجليل والحقير والتقير والنقير والقطمير.

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتَ بِكُمْ رِيحٌ طَيِّبَةٌ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أُنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ .

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي يحفظكم، ويكلوكم بحراسته ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتَ بِكُمْ رِيحٌ طَيِّبَةٌ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ بينما هم كذلك ﴿جَاءَتْهَا﴾ أي تلك السفن ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي شديدة ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي اغتلم البحر عليهم ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي هلكوا ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي لا يدعون معه صنماً ولا وثناً، بل يفردون بالدعاء والابتهاج ﴿لَئِن أُنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ﴾ أي هذه الحال ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي لانشرك بك أحداً، ولنفردك بالعبادة هناك، كما أفردناك بالدعاء هنا.

﴿فَلَمَّا أَنْجَيْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْبِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ .

﴿فَلَمَّا أَنْجَيْنَاهُمْ﴾ أي من تلك الورطة ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي كأن لم يكن من ذلك شيء ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّةٍ﴾ [يونس: 12] قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْبِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم، ولا تضرون به أحداً غيركم، كما جاء في الحديث: «ما من ذنب أجدر من أن يجعل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخره الله لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعه الرحم». وقوله: ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ أي مصيركم ومآلكم ﴿نُنَبِّئُكُمْ﴾ أي فنخبركم بجميع أعمالكم ونوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَنهَاءَ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

ضرب الله تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزيتها، وسرعة انقضائها وزوالها بالنبات الذي أخرجته الله من الأرض بماء أنزل من السماء مما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من آب وقضب وغير ذلك ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ أي زيتها الفانية ﴿ وَازَّيَّنَتْ ﴾ أي حسنت بما خرج في رباهما من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا ﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿ أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا ﴾ أي على جذاها وحصادها. فبينما هم كذلك إذ جاءت صاعقة أو ريح شديدة باردة فأبيست أوراقها، وأتلفت ثمارها، ولهذا قال: ﴿ أَنهَاءَ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا ﴾ أي يابسة بعد الخضرة والنضارة ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ ﴾ أي كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك. قال تعالى: ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾ كَأَن لَّمْ يَتَنَبَّأُوا فِيهَا ﴿ هود: 67 ﴾، [68] ثم قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ أي نبين الحجج والأدلة ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها سريعاً مع اغترارهم بها، وتمكنهم وثقتهم بمواعيدها ونقلتها عنهم، فإذ من طبعها الهرب ممن طلبها، والطلب لمن هرب منها.

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها رغب في الجنة ودعا إليها، وسماها دار السلام، أي من الآفات والقائض، والنكبات، فقال: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ . . . ﴾ روى ابن جرير عن جابر بن عبد الله قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، ومبكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً فقال: اسمع، سمعت أذنك، واعقل، عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أمك كمثل ملك اتخذ داراً، ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مأدبة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد الرسول، فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها».

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح الحسنَى في الدار الآخرة، كقوله ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الرحمن: 60] وقوله: ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال باحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وزيادة على ذلك أيضاً، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان

من القصور والحدود والرضا عنهم . وما أخفاه لهم من قرة عين وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم ، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه ، لا يستحقونها بعملهم ، بل بفضلهم وقال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو؟ ألم يثقل موازيننا؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ، ويحرسنا من النار؟ - قال - فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم» ، وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة . . . وعن النبي ﷺ في قوله : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُنْجَىٰ وَرِجَادَةً﴾ قال : «النظر إلى وجه الرحمن» رواه ابن جرير . وقوله : ﴿وَلَا ذَلَّةٌ﴾ أي هوان وصغار ، أي لا يحصل لهم إهانة في الباطن ، ولا في الظاهر ، بل هم كما قال تعالى في حقهم . ﴿فَوَقَّهْمُ اللَّهُ سَرَ ذَلِكِ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: 11] أي نصرة في وجوههم ، وسروراً في قلوبهم ، جعلنا الله منهم بفضلهم ورحمته آمين .

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِّمِثْلِهَا وَرَهَقَهُمْ ذَلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [١٧] .

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات ، ويزدادون على ذلك ، عطف بذكر حال الأشقياء فذكر تعالى عدله فيهم ، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها ، لا يزيدهم على ذلك ﴿وَرَهَقَهُمْ﴾ أي تعثر بهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها كما قال تعالى : ﴿وَرَتَّبَهُمُ يَعْزُوزُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِيلِ﴾ [الشورى: 45] وقال تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَتَكَلَّمُونَ إِنَّهُ يُخَرِّجُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: 42] وقوله : ﴿مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِرٍ﴾ أي مانع ، ولا وافي يقيهم العذاب كقوله تعالى : ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَن لِّمَن لَّمْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ يَوْمَئِذٍ لَّعْنَةُ اللَّهِ﴾ [الحديد: 10 - 12] وقوله : ﴿كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ . . .﴾ إخبار عن سواد ، وجوههم في الدار الآخرة كقوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [١٦] وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فَمِن رَّحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: 106 ، 107] .

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِبَانًا تَعْبُدُونَ﴾ [٢٨] .

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أي أهل الأرض كلهم من جن وإنس ، وبر وفاجر كقوله : ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 47] ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً ، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين ، كقوله تعالى : ﴿وَأَمْتَرُوا يَوْمَئِذٍ أَنهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: 59] وقوله : ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يَوْمَئِذٍ يَفْزَعُونَ﴾ [الروم: 14] وفي الآية الأخرى ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَعُونَ﴾ [الروم: 43] وقال تعالى في هذه الآية

إخباراً عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة: ﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَوَيْلٌ لَنَا بَيْنَهُمْ...﴾ أنهم أنكروا عبادتهم وتبرؤوا منهم كقوله: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مریم: 82] قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: 166].

﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ﴾ [٢١].

﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ﴾ [٢١] أي ما كنا نشعر بها، ولا نعلم بها، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضينا منكم بذلك، وفي هذا تبيكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئاً، ولم يأمرهم بذلك، ولا رضي به، ولا أراد، بل تبرأ منهم وقت أخرج ما يكونون إليه، وقد تركوا عبادة الحي القيوم السميع البصير القادر على كل شيء العليم بكل شيء، وقد أرسل رسله، وأنزل كتبه، أمراً بعبادته وحده لا شريك له، ناهياً عن عبادة ما سواه كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: 36] والمشركون أنواع وأقسام كثيرون قد ذكرهم الله في كتابه، وبين أحوالهم، وأقوالهم، ورد عليهم فيما هم فيه أتم رداً.

﴿هُنَالِكَ تَبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَصَلَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا

يَفْعَلُونَ﴾ [٢٢].

﴿هُنَالِكَ تَبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ أي في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس، وتعلم ما سلف من عملها من خير وشر كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: 9] وقوله: ﴿يَبْتُلُوا الْإِنْسَانَ بِوَعْدِهِ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: 13] وقوله: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ﴾ أي رجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل ففصلها، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار ﴿وَصَلَ عَنْهُمْ﴾ أي ذهب عن المشركين ﴿مَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ

وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا لُنْقُوتٌ﴾ [٢٣].

يخرج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانته وربوبيته على وحدانية الإلهية فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر فيشق الأرض شقاً بقدرته ومشيئته، فيخرج منها حياً وعبياً وقضياً، وزيتوناً ونخلًا، وحدائق غلباً وفاكهة وأباً أله مع الله؟ فسيقولون الله ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَكُمْ﴾ [الملك: 21] وقوله: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ أي الذي وهبكم هذه القوة السامعة والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بها، ولسلبكم إياها. وقوله: ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي بقدرته العظيمة ومنته العميمة. وقوله: ﴿وَمَنْ

يُدْرِي الْأَمْرَ ﴿٢١﴾ أي من بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فالملك كله: العلوي والسفلي، وما فيهما من ملائكة وإنس وجان فقiron إليه، عبيد له، خاضعون لديه ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أي وهم يعلمون ذلك ويعترفون به ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم.

﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ .

﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ...﴾ أي فهذا الذي اعترفتم به بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم، وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ أي فكل معبود سواه باطل، لا إله إلا هو، واحد لا شريك له ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه، وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء، والمتصرف في كل شيء.

﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ...﴾ أي كما كفر هؤلاء المشركون، واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرزاق المتصرف في الملك وحده، الذي بعث رسله بتوحيده، فلهدا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار، كقوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: 71].

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ .

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي من بدأ خلق هذه السموات والأرض، ثم ينشئ ما فيهما من الخلائق، ويفرق أجرام السموات والأرض، ويبدلها بفساد ما فيهما، ثم يعيد الخلق خلقاً جديداً ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ هو الذي يفعل هذا، ويستقل به وحده لا شريك له ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف تصرفون عن طريق الله الرشد إلى الباطل.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُبْعَثَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَن يَهْدِيَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ...﴾ أي أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنما يهدي الحيارى والضلال، ويقلب القلوب من الغي إلى الرشد الله الذي لا إله إلا هو ﴿أَمَّنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ...﴾ أي أفتبغ العبد الذي يهدي إلى الحق ويبصر بعد العمى، أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدي لعماه وبكمه؟ كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال: ﴿يَتَّبِعْتَنِي لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ

وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ وقوله: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي فما بالكم أن يذهب بعقولكم، كيف سويتم بين الله، وبين خلقه، وعدلتم بهذا وعبدتم هذا وهذا؟ وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإجابة.

﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً، وإنما هو ظن منهم، أي توهم وتخيل، وذلك لا يغني عنهم شيئاً ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تهديد لهم، ووعد شديد، لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة من مثله، لأنه بفصاحته وبلاغته، ووجازته وحلاوته، واشتماله على المعاني العزيرة الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة لا يكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته، ولا في صفاته ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام البشر ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من الكتب المتقدمة، ومهيماً عليها، ومبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل. وقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي وبيننا الأحكام والحلال والحرام بياناً شافياً كافياً حقاً لا مرية فيه من الله رب العالمين. فعن علي بن أبي طالب: «فيه خبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وفصل ما بينكم» أي خبر عما سلف، وعما سيأتي، وحكم فيما بين الناس بالشرع الذي يحبه الله ويرسأه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ...﴾ أي أن ادعيتم وافتريتم وشككتم في أن هذا من عند الله، وقلتم كذباً وميناً: إن هذا من عند محمد بشر مثلكم وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن، فأتوا أنتم بسورة مثله، أي من جنس هذا القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان، وهذا هو المقام الثالث في التحدي، فإنه تعالى تحداهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد فليأتوا بمثله، وليستعينوا بمن شاؤوا فقال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَمِعَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِشَيْءٍ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِيَمِينِ ظَهْرِي﴾ ﴿[الإسراء: 88]﴾ ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مَفْرُودَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ

صَدِّيقِينَ ﴿١٣٦﴾ [همود: 13] ثم تنازل إلى سورة فقال في هذه السورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ قَاتِلُوا إِسْوَزَةَ تِثْلِهِ، وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد به، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام، وحلاوته وجزالته، وطلاوته وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به، وأفهمهم له، وأتبعهم له، وأشدهم له انقياداً، كما عرف السحرة بعلمهم بفنون السحر أن هذا الذي فعله موسى ﷺ لا يصدر إلا عن مؤيد مسدد مرسل من عند الله، وأن هذا لا يستطيع لبشر إلا بإذن الله، وكذلك عيسى ﷺ بعث في زمان علماء الطب، ومعالجة المرض فكان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله. ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً».

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعَلَمِهِ، وَلَمَّا بَاءَ بِهِنَّ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعَلَمِهِ﴾ يقول: بل كذب هؤلاء بالقرآن ولم يفهموه ولا عرفوه ﴿وَلَمَّا بَاءَ بِهِنَّ تَأْوِيلُهُ﴾ أي ولم يحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلاً وسفهاً ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي من الأمم السالفة ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أي فانظر كيف أهلكتناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلواً وكفراً وعناداً وجهلاً، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم.

﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، وَمَنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي من هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن، ويتبعك ويتنفع بما أرسلت به ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ بل يموت على ذلك ويبعث عليه ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضله، وهو العادل الذي لا يجور، بل يعطي كل ما يستحقه. تبارك وتعالى، وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو.

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ أَنْتُمْ بَرِيفُونَ وَمَا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: وإن كذبتك هؤلاء المشركون فبرأ منهم ومن عملهم ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾... ﴿[الكافرون: 1، 2]﴾ وقال إبراهيم الخليل ﷺ: وأتباعه لقومهم المشركين ﴿إِنَّا بَرَاءٌ لَكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [المتحنة: 4].

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الْأَصْمَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٢).

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي يسمعون كلامك الحسن، والقرآن العظيم، والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والأديان والأبدان، وفي هذا كفاية عظيمة، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم، وهو الأطرش، فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٤٣).

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ أي ينظرون إليك، وإلى ما أعطاك الله من التوادة والسمت الحسن، والخلق العظيم، والدلالة الظاهرة على نبوتك لأولي البصائر والنهي، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم، ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَنْجَذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا﴾ [الفرقان: 41].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤٤).

ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً شيئاً، وإن كان قد هدى به من هدى، وبصر به من العمي، وفتح به أعمى عمياً، وأذناً صماً، وقلوباً غلفاً، وأضل به عن الإيمان آخرين، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون لعلمه وحكمته وعدله، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وفي الحديث عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا».

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا

كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (٤٥).

يقول تعالى مذكراً للناس قيام الساعة، وحشرهم من أجدانهم إلى عرصات القيامة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ...﴾ كقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾ [الاحقاف: 53] وكقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ [النازعات: 46] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُفْتَحُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [الأنبياء: 102] يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [الأنبياء: 103] تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: 102 - 104] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبَسُوا عِزَّ سَاعَةٍ﴾ [الروم: 55] وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الآخرة كقوله: ﴿قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ [الأنبياء: 103] قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَايِينَ﴾ [الأنبياء: 104] قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: 112 - 114] وقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يعرف الأبناء والآباء، والقرابات بعضهم لبعض كما كانوا في الدنيا، ولكن كل مشغول بنفسه ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي السُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: 101] ﴿وَلَا يَسْتَلْ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [البصروته: 101].

[المارج: 10، 11] وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ...﴾ كقوله ﴿وَلَّيْلٍ يَوْمِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المسرات: 45] لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين، ولا خسارة أعظم من خسارة من فرق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة.

﴿وَأَمَّا زُرَيْكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ نَنُوفِقُكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ .  
يقول تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ: ﴿وَأَمَّا زُرَيْكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ﴾ أي مصيرهم ومنقلبهم، والله شهيد على أفعالهم بعدك. وقد روى الطبراني عن النبي ﷺ قال: «عرضت على أمتي البارحة لدى هذه الحجرة: أولها وآخرها» فقال رجل: يا رسول الله، عرض عليك من خلق، فكيف من لم يخلق؟ فقال: «صوروا لي في الطين حتى إني لأعرف بالإنسان منهم من أحكمكم بصاحبه».

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .  
﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ يعني يوم القيامة ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها، وكتاب أعمالها من خير وشر، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً: أمة بعد أمة، وهذه الأمة، وإن كانت آخر الأمم في الخلق إلا أنها أول من يفصل بينهم ويقضى لهم، وفي الصحيحين: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق» فأتمه ﷺ إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب، وسؤالهم عن وقته مما لا فائدة لهم فيه كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُسْفِقُونَ مِنهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: 18] أي كائنه لا محالة، وواقعة، وإن لم يعلموا وقتها عيناً.

﴿قُلْ لَا أَمَلٌ لِّنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ .

ولهذا أرشد تعالى رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال: ﴿قُلْ لَا أَمَلٌ لِّنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي لا أقول إلا ما علمني، ولا أقدر على شيء مما استأثر به إلا أن يطلعني الله عليه، فأنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة، وأنها كائنه، ولم يطلعني على وقتها، ولكن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي لكل قرن مدة من العمر مقدرة، فإذا انقضى أجلهم ﴿فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيْنًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ .

ثم أخبر أن عذاب الله سيأتيهم بغتة فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيْنًا أَوْ نَهَارًا؟﴾ أي ليلاً أو نهاراً ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ .

﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْنٌ مِّمَّ بِهٖ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهٖ تَسْتَعْمِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ .

﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْنٌ مِّمَّ بِهٖ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهٖ تَسْتَعْمِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ يعني أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [المؤمنون: 12] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَسَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهٖ مُشْرِكِينَ ﴿٨١﴾﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: 84، 85].

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ .

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي يوم القيامة، يقال لهم هذا تبيكياً وتقريعاً، كقوله: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعْوًا ﴿١٣﴾﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ أَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ أَصْلُهَا فَاصِرُورًا أَوْ لَا تُصِيرُوا سَوَاءً عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور: 13 - 16].

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُوبُ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لِحَقِّ وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ ﴿٥٣﴾﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ أي ويستخبرونك ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ أي المعاد والقيامة من الأجداد بعد صيرورة الأجسام تراباً؟ ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لِحَقِّ وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ﴾ أي ليس صيرورتكم تراباً بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: 82] وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [سبأ: 3] وفي التغابن ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [التغابن: 7].

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهٖ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾ .

ثم أخبرنا تعالى أنه إذا قامت القيامة يود الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالحق ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ .

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأن وعده حق كائن لا محالة، وأنه يحيي ويميت وإليه مرجعهم، وأنه القادر على ذلك العليم بما تفرق من الأجسام، وتمزق في سائر أقطار الأرض وابعجار والقفار.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ .

يقول تعالى ممتناً على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي زاجر عن الفواحش ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي من الشبه والشكوك، وهو إزالة ما فيها من رجس وندس ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ للمؤمنين أي يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى، وإنما ذلك للمؤمنين به، والمصدقين الموقنين بما فيه كقوله تعالى: ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: 82] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [نصفت: 44].

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ .  
﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ أي بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا، فإنه أولى ما يفرحون به ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ .

نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصايل، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: 136].

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ءَإِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾ .

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي ما ظنهم أن نصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة؟ وقوله: ﴿ءَإِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا، ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم ويضيعون على أنفسهم، فيجعلون بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً، وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم. روى ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية قال: «إذا كان يوم القيامة يؤتى بأهل ولاية الله عز وجل فيقومون بين يدي الله عز وجل ثلاثة أصناف، فيؤتى برجل من الصنف الأول، فيقول: عبيدي لماذا عملت؟ فيقول: يا رب خلقت الجنة وأشجارها وثمارها وأنهارها وحورها ونعيمها، وما أعددت لأهل طاعتك فيها، فأسهرت ليلي،

وأظلمات نهاري، شوقاً إليها، قال: فيقول الله تعالى: عبدي إنما عملت للجنة، هذه الجنة فادخلها، ومن فضلي عليك قد أعتقتك من النار، ومن فضلي عليك أن أدخلك جنتي، فيدخل هو ومن معه الجنة، قال: ثم يؤتى برجل من الصنف الثاني، فيقول: عبدي لماذا عملت؟ فيقول: يا رب، قد خلقت ناراً، وخلقت أغلالها وسعيرها، وسمومها ويحمومها، وما أعددت لأعدائك، وأهل معصيتك فيها، فأسهرت ليلي، وأظلمات نهاري خوفاً منها، فيقول: عبدي، إنما عملت ذلك خوفاً من نارِي، فإني قد أعتقتك من النار، ومن فضلي عليك أن أدخلك جنتي، فيدخل هو ومن معه الجنة، ثم يؤتى برجل من الصنف الثالث، فيقول: عبدي، لماذا عملت؟ فيقول: رب حباً لك، وشوقاً إليك، وعزتك لقد أسهرت ليلي، وأظلمات نهاري شوقاً إليك، وحباً لك، فيقول تبارك وتعالى: عبدي إنما عملت حباً لي، وشوقاً إليّ، فيتجلى له الرب جل جلاله، ويقول: ها أنا ذا، فانظر إليّ، ثم يقول: من فضلي عليك أن أعتقك من النار، وأبيحك جنتي، وأزيرك ملائكتي، وأسسم عليك بنفسِي، فيدخل هو ومن معه الجنة.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ .

يخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله، وأحوال أمته، وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي إذ تأخذون في ذلك الشيء، نحن مشاهدون لكم وراؤون سامعون، ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٢﴾﴾ .

يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا، وكانوا يتقون، كما فسره لهم به، فكل من كان تقياً كان لله ولياً، وأولياء الله ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي فيما يستقبلون من أهوال الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما ورائهم في الدنيا. قال عبد الله بن مسعود وابن عباس وغير واحد من السلف: أولياء الله هم الذين إذا رؤوا ذكر الله، وقد ورد هذا في حديث مرفوع رواه البزار قال: قال رجل: يا رسول الله، من أولياء الله؟ قال: «الذين إذا رؤوا ذكر الله»، وروى ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء» قيل: من هم يا رسول الله، لعلنا نحبهم؟ قال: «هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب، وجوههم نور، على منابر من نور،

لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس» ثم قرأ ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢).

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٦٤).

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ روى الإمام أحمد عن النبي ﷺ: في هذه الآية: «الرويا الصالحة يراها المسلم أو ترى له». وفي حديث آخر رواه ابن جرير زيادة «وهي في الآخرة الجنة» ﴿لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿وَلَا يَحْزَنُونَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦٥).

﴿وَلَا يَحْزَنُونَ﴾ يا محمد قول هؤلاء المشركين، واستعن بالله عليهم، وتوكل عليه، فإن العزة لله جميعاً، أي جميعها له ولرسوله وللمؤمنين ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوال عباده، العليم بأحوالهم.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (٦٦).

ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض، وأن المشركين يعبدون الأصنام، وهي لا تملك شيئاً، ولا ضراً ولا نفعاً، ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخريصهم، وكذبهم وإفكهم.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِنَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ﴾ (٦٧).

ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل والنهار ليسكنوا فيه، أي يستريحون فيه من نصبهم وكلامهم وحركاتهم ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي مضيئاً لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم ومصالحهم ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ﴾ أي يسمعون هذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها، ويستدلون على عظمة خالقها، ومقدرها ومسيرها.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أٰتَقُولُوٰنَ عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٨).

يقول تعالى منكرأ على من ادعى أن له: ﴿وَلَدًا سُبْحٰنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ أي تقدر عن ذلك، هو الغني عن كل ما سواه؛ وكل شيء فقير إليه ﴿لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي فكيف يكون له ولد

مما خلق وكل شيء مملوك له عبد له ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ يَهْدَأُ﴾ أي ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إنكار ووعيد أكيد، وتهديد شديد كقول سبانه: ﴿وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ لَدْنَا﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخَجَرُ لَيْلَالٍ هَذَا﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ لَدْنَا﴾ ﴿٩١﴾ ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ لَدْنَا﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿إِنْ كُنَّا مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا فِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿وَكُلُّهُمْ أَمَاتٌ بِرَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ ﴿٩٥﴾ [مريم: 88 - 95].

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ .

ثم توعد تعالى الكاذبين عليه، المفتريين ممن زعم أن له ولداً بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة، فأما في الدنيا فإنهم إذا استدريجهم وأملى لهم متعهم قليلاً ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ.

﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿٧٠﴾ .

كما قال هنا: ﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران: 197] أي مدة قريبة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي يوم القيامة ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ أي الموضع المؤلم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي بسبب كفرهم وافتراءهم وكذبهم على الله فيما ادعوه من الكذب والزور.

﴿وَآتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَيِّنَاتٍ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ﴿٧١﴾ .

يقول تعالى لنبيه صلواته وسلامه عليه: ﴿وَآتَلَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي أخبرهم، واقصص عليهم، أي على كفار مكة الذين يكذبونك، ويخالفونك ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي خبره مع قومه الذين كذبوه، كيف أهلكهم الله، ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ﴾ أي عظم عليكم ﴿مَقَامِي﴾ أي فيكم بين أظهركم ﴿وَتَذِكْرِي﴾ إياكم ﴿بَيِّنَاتٍ اللَّهُ﴾ أي بحججه وبراهينه ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي فإني لا أبالي، ولا أكف عنكم سواء عظم عليكم أو لا ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ أي فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبساً، بل افصلوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا إلي ولا تنظرون، أي ولا تؤخروني ساعة واحدة، أي مهما قدرتم فافعلوا، فإني لا أباليكم، ولا أخاف منكم لأنكم لستم على شيء، كما قال هود لقومه ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهُ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ [مرد: 54 - 56].

﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرْتُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٧٦).

﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي كذبتهم وأدبرتم عن الطاعة ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئاً ﴿إِنْ أَجِرْتُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي وأنا ممثّل ما أمرت به من الإسلام لله عز وجل، والإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم، وإن تعددت شرائعهم وتنوعت مناهلهم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ [المائدة: 48] ولهذا جاء في الحديث «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات»، وهم الأخوة من أمهات شتى، والأب واحد.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ﴾ (٧٦).

﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ أي على دينه ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ وهي السفينة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا﴾ أي في الأرض ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ﴾ أي يا محمد، كيف أنجينا المؤمنين، وأهلكنا المكذبين.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٧٦).

يقول تعالى ثم بعثنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم ﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أي بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءهم به ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم، كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: 110] وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم هكذا يطبع الله على قلوبهم من أشبههم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. والمراد أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل، وأنجى من آمن بهم، وذلك من بعد نوح ﷺ، فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم ﷺ على الإسلام إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً ﷺ، ولهذا يقول المؤمنون يوم القيامة: أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: 17] وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا سيد الرسل، وخاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العذاب والنكال، فماذا ظن هؤلاء، وقد ارتكبوا أكبر من أولئك؟.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ (٧٥).

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد تلك الرسل ﴿مُوسَى وَهَارُونَ﴾ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴿أَي قَوْمِهِ﴾ ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي حججنا وبراهيننا ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ أي استكبروا عن اتباع الحق، والانقياد له، وكانوا قوماً مجرمين.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مِثْلُ مَا سَأَلْنَا آبَاءَنَا مِنَ الْقَوْمِ الْأَوَّلِينَ﴾ (٧٦).  
 ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مِثْلُ مَا سَأَلْنَا آبَاءَنَا مِنَ الْقَوْمِ الْأَوَّلِينَ﴾ (٧٦) كأنهم قبحهم الله أقسموا على ذلك، وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان، كما قال تعالى: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْئَلْنَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14].

﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ (٧٧).  
 ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى﴾ منكرأ عليهم ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾.

﴿قَالُوا أَجِئْنَا بِتِلْكَ آيَاتِنَا وَعَدْنَا عَلَى آبَائِنَا لِكُلِّ أَكْبَرِيَاءٍ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٨).

﴿قَالُوا أَجِئْنَا بِتِلْكَ آيَاتِنَا وَعَدْنَا عَلَى آبَائِنَا﴾ أي تشيئا ﴿عَدْنَا وَعَدْنَا عَلَى آبَائِنَا﴾ أي الذين كانوا عليه ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ﴾ أي لك ولهارون ﴿الْأَكْبَرِيَاءُ﴾ أي العظمة والرئاسة ﴿فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾. وصمم فرعون وملؤه قبحهم الله على التكذيب بما جاءهم به موسى وهارون، والجحد والعناد والمكابرة حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وأغرقهم في صيحة واحدة أجمعين ﴿فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٥) [الأنعام: 45].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَدْعُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيِّمٍ﴾ (٧٩).

أراد فرعون لعنه الله أن يهجر على الناس، ويعارض ما جاء به موسى ﷺ من الحق المبين بزخرف السحرة والمشعبدين، فانعكس عليه النظام، ولم يحصل له ذلك المرام، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام ﴿وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ﴾ (١٢٠) قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ [الأعراف: 120 - 122] فظن فرعون أن يستنصر بالسحار على رسول عالم الأسرار، فخاب وخسر الجنة واستوجب النار ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَدْعُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيِّمٍ﴾ (٧٩).

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ (٨٠).

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ (٨٠) وإنما قال لهم ذلك لأنهم لما اصطفوا، وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعتاء الجزيل ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى﴾ (٨١).

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَابِقُ الْعَمَلِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٨١﴾ .

قال موسى لما ألقوا: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَابِقُ الْعَمَلِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ .

﴿وَيُحِثُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ .

﴿وَيُحِثُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ والآية الأخرى ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٧٨﴾ [الأعراف: 118] .

﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ .

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى ﷺ مع ما جاء به من الآيات البينات، والحجج القاطعات، والبراهين الساطعات إلا قليل من قوم فرعون من الذرية، وهم الشباب على وجل وخوف منه، ومن ملته أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر، لأن فرعون لعنه الله كان جباراً عنيداً مسرفاً في التمرد والعتو، وكانت له سطوة ومهابة، يخاف رعيته منه خوفاً شديداً. ﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ...﴾ .

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٨٤﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لبني إسرائيل: ﴿يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ أي فإن الله كافٍ من توكل عليه ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: 36] ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الرائعة: 3] وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين العبادة والتوكل، كقوله تعالى ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [مرد: 123] ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: 29] ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [الزمل: 9] .

﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ .

﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ أي لا تظفرهم بنا، وتسلطهم علينا، فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق، ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك .

﴿وَيَجْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الكَافِرِينَ﴾ ﴿٨٦﴾ .

﴿وَيَجْنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ أي خلصنا برحمة منك وإحسان ﴿مِنَ الْقَوْمِ الكَافِرِينَ﴾ أي الذين كفروا الحق وستروه، ونحن قد ءامنا بك، وتوكلنا عليك .

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَ لِقَوْمِكَ مِمَّا بِيُوتَا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ .

يذكر تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه، وكيفية خلاصهم منهم، وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوأ، أي أن يتخذوا لقومهما بمصر بيوتاً ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أمروا أن يتخذوها مساجد، أو كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا في بيوتهم، وكان هذا - والله أعلم - لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه، وضيقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة، كقوله ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: 153] وفي الحديث «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى» ولهذا قال: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بالثواب والنصر القريب. عن ابن عباس قال: قالت بنو إسرائيل لموسى ﷺ: لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة، فأذن الله لهم أن يصلوا في بيوتهم، وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قِبْلَ القبلة، أو ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي يقابل بعضها بعضاً.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿٨٨﴾ .

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى ﷺ على فرعون وملئه لما أبوا قبول الحق، واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين ظلاماً وعلواً وتكبراً وعتواً، قال موسى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً﴾ أي من أثاث الدنيا ومتاعها ﴿وَأَمْوَالًا﴾ أي جزيلة كثيرة ﴿فِي﴾ هذه ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَن سَبِيلِكَ﴾ أي ليفتنن بما أعطيتهم من شئت من خلفك ليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم، واعتناك بهم ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي أهلكها. ﴿وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ﴾ أي اطبع عليها ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ وهذه الدعوة كانت من موسى ﷺ غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء، كما دعا نوح ﷺ فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ ﴿٦٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوْا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوْا إِلَّا فٰلِجًا كَفَّارًا﴾ ﴿٦٧﴾ [نوح: 26، 27].

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمْ فَاَسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٩﴾ .

وقد استجاب الله تعالى لموسى ﷺ فيهم هذه الدعوة التي أمن عليها أخوه هارون فقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمْ﴾ .

﴿وَجَوْرَانَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْمَرْتَقُ قَالَ ءَأَمَنْتُمْ أَنَّمَا لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٩٠﴾ .

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده، فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة

موسى ﷺ، وقد كانوا استعاروا من القبط حلياً كثيراً، فخرجوا به معهم فاشتد حنق فرعون عليهم ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ خَشِيرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الشعراء: 53] يجمعون له جنوده من أقاليمه فركب وراءهم في أبهة عظيمة، وجيوش هائلة، لما يريد الله تعالى بهم، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته، فلحقوهم وقت شروق الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَاَهُ الْجَمْعَانِ قَالَ أَحَدُهُم مَّوْسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الشعراء: 61] وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر، وفرعون وراءهم، ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان، وألح أصحاب موسى ﷺ عليه في السؤال كيف المخلص مما نحن فيه؟ فيقول: إني أمرت أن أسلك ههنا ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء: 62] فعندما ضاق الأمر اتسع، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه فضربه فانفلق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم، أي كالجبل العظيم، وصار اثني عشر طريقاً، لكل سبط واحد، وأمر الله الريح فنشفت أرضه ﴿فَأَضْرَبَ لَهم طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا عَثْقَانًا ﴿٧٧﴾﴾ [طه: 77] وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشبايك ليرى كل قوم الآخرين لثلا يظنوا أنهم هلكوا، وجاوزت بنو إسرائيل البحر، فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى، فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب، وهم بالرجوع، وهيئات ولات حين مناص، نفذ القدر، واستجيب الدعوة، وجاء جبريل ﷺ على فرس فمر إلى جانب حصان فرعون فحمم عليها، واقتحم جبريل البحر فاقتحم الحصان وراءه، ولم يبق فرعون يملك من أمره شيئاً، فتجلد لأمرائه، وقال لهم: ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا، فاقتحموا كلهم عن آخرهم، وميكائيل في ساقتهم، لا يترك منهم أحداً إلا ألحقه بهم، فلما استوثقوا فيه، وتكاملوا، وهم أولهم بالخروج منه أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم، فارتطم عليهم، فلم ينج منهم أحد، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم، وتراكت الأمواج فوق فرعون وغشيته سكرات الموت فقال: ﴿ءَأَمِنْتُ أَنَّمَا لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ فآمن حيث لا ينفعه الإيمان ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَأَمِنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَسَخَّرْنَا لِمَا كُنَّا بِهِ مُمْرِكِينَ ﴿٨٢﴾﴾ ﴿فَلَمَّا يَكُ يَنْفَعُهُمْ يُعَنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: 84، 85].

﴿ءَأَلْفَنَّا وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ .

ولهذا قال الله في جواب فرعون حين قال ما قال: ﴿ءَأَلْفَنَّا وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ أي أهدأ الوقت تقول آمنت، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه ﴿وَكَنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي في الأرض .

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لَئِن كُنْتَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَن ءَايَاتِنَا لَعَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ .

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ أي نرفعك على نشز من الأرض ﴿نُنَجِّيكَ﴾ أي بجسدك، أي بجسم لا روح فيه، لم يتمزق ليتحققوه ويعرفوه ﴿لَئِن كُنْتَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً﴾ أي لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتك وهلاكك، وأن الله القادر الذي ناصية كل دابة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شيء ﴿وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ

عَنْ آيَاتِنَا لَنُفِئُوكَ ﴿٩٠﴾ أي لا يتعظون بها، ولا يعتبرون بها. وقد كان إهلاكهم يوم عاشوراء، روى البخاري قال: قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، فقال النبي ﷺ لأصحابه: «أنتم أحق بموسى منهم فصوموه».

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ يَلِإِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩١﴾﴾.

يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدنيوية. وقوله: ﴿مَبُوءًا صِدْقٍ﴾ قيل: هو بلاد مصر والشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه فإن الله لما أهلك فرعون وجنوده استقرت الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها، كما قال: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَمُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكَمَتَ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: 137] وقوله: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً. وقوله: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم، أي ولم يكن لهم أن يختلفوا، وقد بين الله لهم، وأزال عنهم اللبس ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أي يفصل بينهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

قال قتادة بن دعامة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل» وهذا فيه تثبيت للأمة، وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: 157] ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرف أبناءهم يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾... أي لا يؤمنون إيماناً ينفعهم، بل حين لا ينفع نفساً إيمانها، ولهذا لما دعا موسى ﷺ على فرعون وملئه قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ

وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٠٨﴾ [يونس: 88] كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ [الأنعام: 111].

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٠٩﴾﴾ .

يقول تعالى فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل، بل، ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه، أو أكثرهم، كقوله تعالى: ﴿يَحْشُرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [يس: 30] ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٧﴾﴾ [الحجر: 52] والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس، وهم أهل «نينوى» وما كان إيمانهم إلا تخوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعدما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم فعندما جأروا إلى الله واستعانوا به وتضرعوا واستكانوا، وأحضرُوا أطفالهم، ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم، فعندما رحمهم الله وكشف عنهم العذاب، وأخروا، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ واختلف المفسرون: هل كشف عنهم العذاب الأخرى مع الدنيوي، أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط؟ على قولين، أرجحهما الأول.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ يا محمد لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به فآمنوا كلهم، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كقوله: تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَاؤُونَ مَخْتَلِفِينَ ﴿١٧٨﴾﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَفَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَآنَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [مؤد: 118، 119] وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: 31] ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ أي تلزمهم وتلجئهم ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي ليس ذلك عليك، ولا إليك، بل الله ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتًا﴾ [فاطر: 8] فالله هو الفعال لما يريد، الهادي لمن يشاء، والمضل لمن يشاء لعلمه وحكمته وعدله.

﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١١٧﴾﴾ .  
ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ وهو الخبال والضلال

﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي حجج الله وأدلته، وهو العادل في كل ذلك في هداية من هدى وإضلال من ضل.

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

يرشد تعالى عباده إلى التفكير في آياته، وما خلق الله في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الأبصار، مما في السموات من كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر والليل والنهار واختلافهما، وإيلاج أحدهما في الآخر حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها، وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزرع والأزهار ونبات، وما ذراً فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب، وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مسخر مذلّل للسالكين يحمل سفنهم، ويجري بها برفق بتسخير القدير، لا إله إلا هو، ولا رب سواه. وقوله: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي، وأي شيء تغني الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها عن قوم لا يؤمنون، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١٦٦] وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ بَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آيَاتِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آيَاتِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النعمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسولهم ﴿قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي ونهلك المكذبين بالرسول ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ حقاً أوجبته الله على نفسه الكريمة، كقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 54]. وكما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله كتب كتاباً، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي».

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا آعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ آعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

يتول تعالى لرسوله محمد ﷺ: قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من صفة ما جئتمكم به من الدين

الحنيف الذي أوحاه الله إليّ فأنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له، وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم، ثم إليه مرجعكم، فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقاً، فأنا لا أعبدها فادعوها فلتضرني، فإنها لا تضر ولا تنفع، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده، لا شريك له، وأمرت أن أكون من المؤمنين.

﴿وَأَنْ أَقْرَبَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ .  
 ﴿وَأَنْ أَقْرَبَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي أخلص العبادة لله وحده ﴿حَنِيفًا﴾ أي منحرفاً عن الشرك، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١١٧﴾﴾ .  
 ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ . . .﴾ فيه بيان أن الخير والشر، والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه في ذلك أحد، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له. روى الحافظ ابن عساكر أن رسول الله ﷺ قال: «اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات ربكم، فإن لله نفحات من رحمته، يصيب بها من يشاء من عباده، وأسألوه أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم». ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي لمن تاب إليه، ولو من أي ذنب كان حتى من الشرك، فإنه يتوب عليه.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْنَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١١٨﴾﴾ .  
 يقول تعالى أمراً لرسوله ﷺ أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، فمن اهتدى به واتبعه، فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين، وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُوكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَائِكِينَ ﴿١١٩﴾﴾ .  
 ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ﴾ أي تمسك بما أنزل الله عليك، وأوحاه إليك، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿حَتَّىٰ يَخُوكَ اللَّهُ﴾ أي يفتح بينك وبينهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْخَائِكِينَ﴾ أي خير الفاتحين بعدله وحكمته.